

الماء في ثقافة بدو الصحراء

الأسطورة، والطقس وفنون القول

أ.د. أحمد زغب: أستاذ التعليم العالي بجامعة وادي سوف

إن الحديث عن الماء لا يكون ذا جدوى إلا إذا بدأ بالإنسان الذي يستغل الموارد المائية وينتج الماء ويستهلكه، ويحسن استغلاله أو يسيء، وثقافة الإنسان توجه نظرته إلى هذا المادة الحيوية. ومن ثم نبدا في التعرف على ثقافة المجتمع العربي في الصحراء حيث شح الموارد المائية

نجد لدى معظم الثقافات ، أساطير تربط التكوين الأولي للكون و الحياة بالماء، بما في ذلك الديانات الموحدة ، فقد أورد الباحثون أساطير التكوين الأولى إلى زمرة الميلاد المائي ، فالحالة السابقة لبدء الكون - كما يقول السواح- في أساطيرنا التكوينية ، هي حالة من العماء المائي ، ساكن لا متمايز لا متشكل في زمن سرمدى متماثل ، لا ينتابه تغيير ولا تبديل كانه عدم ، في لحظة معينة ، هي هزة ودمار يليها بناء جديد ينبثق الكون من لجة العماء ويبدأ النظام من قلب الفوضى¹ وهكذا كان الماء لدى الإنسان القديم مقدسا والمجالات المائية تعبد، كآلهة البحار والأنهار والينابيع إلى غير ذلك من المجالات المائية².

أما في الثقافات ذات الديانات الموحدة، ففي الإصحاح الأول من سفر التكوين ، كان ربط الخلق الأول للكون والحياة بالماء، فنقرأ³ ((في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله ترفرف على وجه المياه))⁴

اما في الأنجيل ، فمن الواضح ان الماء هو الحياة نفسها ففي سفر يوحنا⁵ ((أجاب يسوع).....) بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية))⁶ أما في القرآن

¹ - فراس السواح : مغامرة العقل الأولى. ط11. ، ص27.

² - ينظر حنان حمودة : الماء كمنشط انثروبولوجي لإنتاج الطقوس موقع أرانثروبوس

³ - الكتاب المقدس : سفر التكوين الإصحاح الأول.

⁴ - إنجيل يوحنا : إصحاح 4 / 14

الكريم فنجد ذلك واضحا في قوله تعالى((هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا))⁵

وهكذا ارتبط الماء في ثقافة الإنسان القديم بالأسطورة، والقوى الغيبية المسيطرة على الكون والحياة والمصير. وما دامت الأسطورة مرتبطة بالطقوس كما يرى فريزر فهي التي تبررها وتعطيها مشروعيتها فقد كان الماء محورا لمعظم الممارسات الطقوسية.

أساطير الماء في الثقافة الشعبية:

مسايرة لأساطير عالمية، كأسطورة فروبنيوس الرومانية، عن أم العالم ، ظهرت أسطورة العجوزة التي صنعت العالم، والأسطورة تتماشى مع ما يذهب اليه الأنثروبولوجي العربي فراس السواح ، من ان الإنسان البدائي في العصر الباليوليتي ومطلع النيوليتي ، كان يعتقد بالآلهة المؤنثة. التي كانت ، كما يقول ، تتربع وحيدة على عرش الكون ، قبل نزوح الثقافة النيوليتية وتزايد الدور الاجتماعي للرجل⁶.

وفي الثقافة الشعبية ارتبط صنع المرأة الأولى أو العجوزة ، للعالم بالماء ، فقد وصلت إلى عين الماء ومن ثم وجدت الرجل الذي اختصمت معه على الماء وكان هذا الخصام سببا في المواقعة الجنسية التي أنتجت بنين وبنات.

وفي الأساطير الشعبية في كثير من مناطق بلاد المغرب، تعرف أيام البرد الشديد بأيام العجوزة، وهي التي تعزى إلى أسطورة أمازيغية قديمة تقول إن العجوزة تهكمت على يناير بأنه انقضى، فغضب منها هذا الأخير فأستعار لها يوما من شهر فورار⁷.

تعود هذه الأساطير إلى الثقافة القديمة في العصور البدائية لما قبل التاريخ ، قبل ظهور الديانات السماوية. أما في الأساطير الحديثة أي تلك التي تعود للحضارات العليا، فالماء أصل الحياة وسببها، وهو في الأساطير الدينية لا يختلف كثيرا عن نظرة طاليس اليونانية

⁵ - القرآن الكريم : سورة هود الآية7.

⁶ - ينظر: فراس السواح : لغز عشتار الآلهة المؤنثة وأصل الدين ص25

⁷ - نبيل حويلي: منظومة الأسطورة في منطقة القبائل .رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة مولود معمري تيزي وزو 2015

وهو أن الماء قوام الموجودات بأسرها، وبما أن الأشياء كما يقول طاليس مليئة بالآلهة فقد كان الماء عنده بمثابة اللوغوس الإلهي كما يرى طلعت مراد بدر⁸.

أما في العهد القديم فنجد أساطير كثيرة تحكي قصة انتشار موسى من الماء، ليتربى عند فرعون، وأسطورة، الضرب بعصاه على الماء ليتحول إلى دم أمام فرعون، وأسطورة شكوى قوم موسى من ملوحة المياه فطرح شجرة في الماء فصار الماء عذبا⁹ والأسطورة المشابهة لما ورد في القرى الكريم، وردت كذلك في سفر العدد¹⁰ وهي ضرب الصخرة بالعصا فينبجس الماء ليسقي الإنسان والماشية.

والفكرة نفسها انبجاس الماء من الحجر واردة في القرآن الكريم في قوله تعالى:

((واوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام...))¹¹ كما وردت في موضع آخر من القرآن الكريم برواية مختلفة بعض الشيء ((وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشر عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله))¹².

والأساطير الشعبية التي ترجع انبجاس الماء إلى ولي صالح أو ولية صالحة أو رجل مبارك كثيرة جدا في الذاكرة الشعبية، ونكتفي بأسطورة امازيغية، وأسطورة مروية في تفسير نشأة وتكون بلدة في منطقة سوف تسمى الدبيلة.

في منطقة القبائل يعتقد أن امرأة تعتبر صالحة لجأ إليها الناس بعد أن ضاقت بهم سبل العيش بسبب الجفاف وقلة الموارد، فاستجدوا بلالة الياقوت، فبسطت لهم الأرض وضربت برجليها لتخرج ماء عذبا رقيقا يسيل على الأرض فتزهر وتثمر واخضرت الأرض وما تزال العين عين الياقوت إلى أيامنا هذه في أعالي القرية يقصدها القبائل للتبرك¹³.

⁸ - طلعت مراد بدر: ميثولوجيا الكون المؤله. جامعة عمر المختار البيضاء ص153.

⁹ - سفر الخروج إصحاح 15

¹⁰ - سفر العدد الإصحاح 20

¹¹ - القرآن الكريم سورة الأعراف آية 160

¹² - سورة البقرة الآية 60

¹³ - نبيل حويلي المرجع السابق ص214

أما الأسطورة الثانية فيرويها سدنة ضريح الولي الصالح سيدي علي بن خزان الذي يعتقد سكان بلدة الدبيلة إلى الشرق من مدينة الوادي بنحو 20 كيلومتر، أنه جدهم المؤسس الأول للمدينة، يقول الرواة ان الدبيلة كانت قاعا صفصفا وأرضا خالية لا تصلح لشجر ولا حجر، وجاء سيدي علي بن خزان ويعود نسبه إلى إدريس الأصغر من نسل الرسول (ص) جاء إلى منطقة نفزاوة ومنها إلى منطقة الجريد بالبلاد التونسية ثم تركها إلى منطقة سوف ، وأخذ في تعمير المنطقة المسماة حاليا البهيمية ، لكنه قفل راجعا إلى الشرق بعد أن هاجمه أشرار من تلك البلاد، ومع أن الله انتقم له منهم ، فقد هلكوا عن آخرهم ولم يبق منهم إلا من ينقل الخبر. وشرع في العمل الزراعي حتى وصل إلى المكان المسمى حاليا صحون بري على بعد نحو 20 كلمترا من الدبيلة. وهناك هتف له هاتف - قيل انه من الصالحين- أن ارجع إلى الغرب ، فرمى عصاه فسقطت على بعد أكثر من عشرين كلومترا أي في المنطقة المسماة حاليا الدبيلة وفي موضع بئر الزاوية حاليا، وانجس الماء في موضع سقوط العصا، ومن ثم عاد سيدي علي بن خزان إلى المكان ليعمره، وأصبح صالحا للغرس ببركة الولي الصالح.

وقرب موضع سقوط العصا بنى زاويته ومسجده وأخذ في الغرس والتعمير وانضم إليه جمع من الناس وصار المكان أهلا بالسكان صالحا للعيش.¹⁴

والدبيلة اليوم مدينة تحتوي على آلاف النخيل علاوة على المزروعات الأخرى، ويعتقد السكان الأصليون في هذه المدينة أنهم من نسل الولي الصالح سيدي علي بن خزان ، ويسمونه هكذا “جدّي علي بن خزان”، وأن المكان مبارك بفضل حلوله به وقيمون طقوسا سنوية تسمى قصعة جدي علي بن خزان تخلد هذه الأسطورة.

وبقراءة سريعة للأسطورة نجدها مستمدة من التراث الديني، فالولي الصالح منحدر من نسل النبي، وترحاله من مكان إلى مكان بغرض التأسيس الديني، فقد بنى مسجدا في كل المواطن التي حل بها من البهيمية والدبيلة وصحون بري، ووقوف قوى الشرّ ضده وهلاكهم بسبب هذا العدوان يذكرنا بالأنبياء، وفكرة العصا التي تشبه عصا موسى وانجاس الماء مصدر الحياة في المنطقة القاحلة بالإضافة إلى الوحي والإلهام (الهاتف الذي اوحى إليه أن ارجع إلى

¹⁴ - ينظر : احمد زغب: الأدبي الشعبي الدرس والتطبيق ص 26/25

الغرب) كل ذلك دون نسيان الأعمال الخارقة لقوانين الطبيعة والتي يسمونها كرامات؛ كرمي العصا لتقع على بعد أكثر من عشرين كيلومترا وانجاس الماء في الموضع الذي تسقط فيه ، كل ذلك يحيل تأسيس المدينة إلى انجاس الماء والأسطورة الدينية. فسيدي علي أو جدي علي بن خزان كما يسميه أهل الدبيلة بطل من الأبطال الأخيار استمد بطولته من الدعم الإلهي ونلاحظ إسقاطا واضحا لما يفعله الأنبياء عادة من أجل نشر الدعوة ، وما لاقوه من عنت في سبيل ذلك فالنص المقدس يقدم نماذج مشابهة لأسطورة سيدي علي بن خزان¹⁵.

والأساطير التي تحيل سيلان الماء إلى الدين وكرامة الولي والدعم الإلهي، كثيرة جدا ومنتشرة في أماكن عديدة.

الماء والطقوس:

قبل الديانات السماوية، كان الإنسان القديم وماتزال كثير من الجماعات الإنسانية في العالم تقدر الماء، او تتقرب من آلهة الماء، وكانت القرابين تقدم إلى النيل، وكان الطقوس التعبدية تقدم عند ينابيع المياه.

يرى جيمس فريز في كتابه الغصن الذهبي أن تموز وهو نفسه أدونيس من أقدم آلهة السومريين ويتألف اسمه من عبارة سومرية معناها ((الابن الحق للمياه العميقة)) وكان نهر إبراهيم الذي يصب في البحر على بعد قليل جنوبي بيبيلوس (جبيل حاليا) يسمى في القديم نهر أدونيس¹⁶.

وأقيم على ضفاف النهر هيكل من البرونز يعبد فيه وكان يعبد باسم آلهة جبيل، والطقوس التي تمارس من قبل الإنسان القديم ويستخدم فيها الماء أكثر من ان تحصر في عجالة كهذه، فأدونيس يرمى تمثاله و جنائنه بالماء، في ما يعرف بالسحر التشابهي أو الهوميوباتي أملا في إنزال الأمطار من أجل تخصيص الأرض بواسطة هذا الطقس الذي اختلطت فيه عبادة ادونيس بالسحر.

ولا تزال كثير من الطقوس تمارس عند ينابيع المياه الحارة في سوريا، وكثير من البلاد الأخرى كإيطاليا واليونان وغيرهما، فالنساء العاقرات يترددن على الينابيع في سوريا يطلبن الأطفال من

¹⁵ - ينظر: المرجع نفسه ص27

¹⁶ - جيمس فريزر: الغصن الذهبي ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ص28

جنيّ الماء أو ولي الماء. وقد يذبحون خروفا عند منابع الماء ثم يستحمون للاستشفاء كما ذكر فريزر¹⁷.

اما في الديانات الموحدة، فالتعميد في اليهودية والمسيحية إيذان بدخول الإنسان إلى المقدس، ويرمز في المسيحية إلى التطهر من الخطيئة الأصلية للإنسان، أما في اليهودية فهو جزء من طقوس العبور.

كما نعرف في الإسلام الاغتسال والوضوء من شروط صحة الصلاة وبعض الطقوس الدينية الأخرى كالطواف والسعي وإن كان طهر الحدث في السعي غير ملزم .

طقوس الماء في الثقافة الشعبية:

أدرك الإنسان أهمية الماء في الحياة ، بل أدرك نجاعته في العلاج فكان يقدس كثيرا من الينابيع الحارة، وينسبها إلى ولي صالح كينبوع سيدي ماضي قرب تقرت في الجنوب الشرقي الجزائري وينبوع سيدي بوحنيقية في غرب البلاد وحمام الصالحين قرب مدينة بسكرة.

وطقس الماء أو الاستمطار والاستسقاء لا يقتصر على الكبار إدراكا لأهميته ، بل إن الطقوس تتجاوز إلى الأطفال الذي يغنون أغنية بوغنجة (وهي عروسة أو دمية تصنع من مغرفة الطعام تعود إلى أسطورة أمازيغية قديمة) أو يطوفون في القرية ليجمعوا من الطعام ويغنون اغنية الاستمطار: صبي صبي يا مطر!!!

كما يرتبط الماء ببعض المعتقدات ، تحرم الماء في اوقات معينة وأماكن معينة، لارتباطه بكائنات غيبية تجعله مؤذيا، فبعض الأنهار مسكونة بالجن، فيمنع الاستحمام فيها في اوقات معينة،كالفترة الممتدة من العصر إلى المغرب في منطقة القصور الصحراوية في غرب الجزائر¹⁸ أو تقضي بعض الإلزامات، كطقوس إلقاء عروسة خشبية في بحيرة لالة الزرقاء قريبا من مدينة جامعة، عند كل عرس ، قربانا لجنيّ يعتقد انه خطاف العرائس حفاظا على العروسة¹⁹.

¹⁷ - فريزر: المرجع نفسه ص187/188

¹⁸ - عبد القادر خليفي: الماء وطقوسيته في منطقة القصور، مجلة إنسانيات صادرة عن crasc 2003. عدد20.

¹⁹ ينظر : احمد زغب : عمود الدخان (رواسب الاخر في ثقافتنا الشعبية) غدارات دار الثقافة الوادي 2015 ص72.

اما في في الثقافة العربية الإسلامية التي انتمت إليها معظم سكان الصحراء المغاربية، فبالإضافة إلى صلاة الاستسقاء المشروعة فقهيا وبصريح النصوص المقدسة، فإن الاستسقاء ببركة بعض الشخصيات المقربة من المقدس كالعباس بن عبد المطلب عم الرسول (ص) أو ببعض من اعتقد المجتمع أنهم أولياء الله الصالحون وهكذا روت الذاكرة الشفاهية روايات عديدة عن كرامات أولياء صالحين فجرت ينوعا في صحراء جرداء، أو أشخاص بلغ بهم العطش مداه في الصحراء فاستنجدوا بالولي الصالح سيدي عبد القادر فإذا بهم يجدون الماء البارد الصافي الزلال.

في دراستها عن واحة (سكورة) بالمغرب أوضحت الدارسة حنان حمودة، ان الطقوس الممارسة بواسطة الماء تؤدي العديد من الوظائف، فهي توثق اواصر العلاقة القرابية والعائلية وتحيي الزمن القبلي القديم المتصل بالبوصللة الزراعية والمائية وتستحضر التاريخ الإيجابي وتستحضر الطقوس المائية المقدس في تنوع صوره ومجالاته مثل العيون والآبار والسواقي والأضرحة وهو آلية للعبور عبر الزمن الأسطوري من العالم الواقعي المادي، إلى العالم الغيبي اللامادي المتصل بالتمثلات الدينية حول دور الفاعل ((الله)) ومايرمز إليه من مقدسات.²⁰

وما قالتها الأستاذة الباحثة حنان حمودة عن واحة سكورة وهي واحة خصبة كثيرة المياه تقع جنوب المغرب ،لا يختلف كثيرا عما هو موجود لدى سكان الصحراء المغاربية عموما، لا سيما في التمثلات الدينية واستخدام الماء كمنشط للطقوس الدينية.

الماء في فنون القول:

يبرز الماء بوضوح شديد في ثقافة البدو، من خلال مصادره القليلة: المطر والسحاب والبنر، ليس من حيث هو طبيعة ضرورية لاستمرار الحياة فقط ، إنما يبرز من خلال علاقته بالثقافة نفسها، فهو في المثل واللغز والشعر، وما دام الشعر اهم فنون القول عند البدو نركز على أشعار البدو ونظرتهم إلى الماء، فهو يشير إلى الحيوية والحياة فإذا عبر الإنسان البسيط عن ذهاب الحيوية النفسية والعقلية من شخص قالوا هرب عليه الماء، ويرمز إلى اهم القيم كالحياة والحشمة والشهامة كان يقول عن شخص ذهب ماء وجهه.

²⁰ - حنان حمودة : الماء كمنشط أنثروبولوجي فنتاج الطقوس. أرنتروبوس موقع إلكتروني.

أما في الشعر، فإن الحديث مع البئر ومناجاته وسؤاله عن الأحبة الذين مروا به، كثير في أشعار البدو. الأمر الذي يشير إلى النظرية الأرواحية أو الإحيائية animism في الأنثروبولوجيا ، فحسب إدوارد تايلور لم يستطع الإنسان البدائي ان يفصل بين الكائنات الحية والجمادات ، لذلك نقل إيمانه بأرواح البشر إلى الإيمان بأرواح المظاهر الطبيعية وفسر ما يراه من حركة لهذه المظاهر بالأرواح التي تسكنها ،²¹ وهكذا كان الشاعر البدوي يقسم بالله على البئر ان يخبره عن الفتاة التي أحبها:

قَسَمْتُكَ بِاللّٰهِ يَا بَيْرُ تَنْبِي عُقْبُنْشَالْعَمْهُوجُ الّٰلِي سَمَاهَا حِدِّي

أو:

يَا بَيْرُ عُقْبُنْشِي عَلَيْكَ بِنْتُهُ هِنَّ ثَلَاثَةُ وَالدَّبَالِجُ سِنْتُهُ

أو قد يتصور أن للبئر مشاعر وأحاسيس مثل الإنسان، فيشخصه ويجعله متألماً لفراق الأحبة الذين ألفهم وعاشهم مدة طويلة، ويتصور البئر يعاني من الحمى من شدة الشوق إلى القوم ويشعر بالإهانة بسبب أن القوم تركوه وحيدا في القفار. ثم يتمنى البئر أن تمطر السماء وينبت الزرع وينتعش الضرع، ليعود إليه القوم وتعود الفتيات الجميلات يتزاحمن على الورد من مائه.

هانوك ما لاحو عليك القرعة	يا بئر ناسك بعدوا بالترعة
وهانوك كي عادت وطاقك ترمم	هانوك عدت تخمم
وسيله على الأعلابدايرفرعة	وكان على هودك غدا لمجمم
حصاد كي قصن سبائل زرعة	نوار في هيش البليدة غمم
وريم عليه الرمل غطى فمه	كلاته الزمة
الْ كَانُوا عَلَيْهِ يُمَدُّوْا وَيَرُدُّوْا	امَالِي السَّجَاعَةُ وَالسَّخَا وَالْهَمَّةُ
جَزَى لَهُ كَمَا الْقُسْطُ الْقُبُورُ تَمْدُوْ	مَنْ فَرَّقَهُمْ رَكِبْتُ عَلَيْهِ الْجَمَى

كما يستعمل الشعر مفتاحا لحل مورد الماء لدى البدو حين يتزاحم الناس على البئر، وكل يدعي أحقيته ، فيدخل الشعر لحسم النزاع فيما يعرف بربط البئر على السابلة وحله في ذات الوقت بواسطة الشعر .

²¹ - ينظر : فراس السواح ، دين الإنسان ، ص 313

وفي الشعر يلجأ الشاعر الى القوى الغيبية سواء في ربط البئر او حل الرباط، فيدعى الشاعر الذي يربط أنه ألقى المفتاح الى الجن من اولاد بالأحمر مثلاً، وينسخ الشاعر الثاني الكلام باللجوء على التعويذات الدينية من آية قرآنية إلى يلجا الى الاسم الأعظم من ثم ينهزم اولاد بالحرمر يفرون بجلدهم ويفتح البئر للمورد.

وعلى الجملة فإن الماء في ثقافة البدو من مصدر قدسي غيبي تمسكه القوى الغيبية، وبواسطة الطقوس يمكن إطلاقه للناس (صلاة الاستسقاء عن المسلمين)، والطقوس يدخل فيها الماء (الغسل الوضوء. الاستحمام)، سواء أكانت تعبدية أو استشفائية. كما أن الثقافة الدينية المثالية تتصح بعدم تبذيره فهو نعمة من الله. ويمكن ان نلاحظ ان تعلق الإنسان بالماء من جهة ، وبالأرواح الغيبية من جهة أخرى جعله يشخص البئر مصدر الماء أو أنزار إله المطر في الأسطورة الأمازيغية.